شهريات

بقلم رئيس التحرير

مع ثلوج بلغاريا

قضيت الاسبوع الاخير من الشهر الماضي في زيارة ساحرة لبلغاريا ، بدعوة من لجنة الصداقة البلغارية والعلاقات الثقافية مع الخارج .

ومصدر السحر في هذه الزيارة يكمن في الطبيعة وفي البشر .

فللمرة الاولى في حياتي انفقت اسبوعا كاملا وسط طبيعة بيضاء تقيم فيها الثلوج مملكة عجيبة يخضع فيها كل شيء لسلطان هذا الندف الابيض يكسو الاشجار والقباب والقرميد والشوارع والبشر والطير ..

صحيح ان اللبناني يستطيع ان يرى الثلج في جبل الارز وفي مناطق اخرى . ولكن ذلك يقتضيه ان ينتقل الى تلك المناطق ويعد العدّة وينتهز الفرصة لينعم بالثلج . اما هنا ، في قلب العاصمة صوفيا ، فان الثلج هو الذي يأتي اليك ، يعشش على نافذتك ، ويقتحم غرفتك اذا اردت أن تفتح شباكها ، ويتراكم عند مدخل باب بيتك او فندقك . فتعمل على ازاحته بكل صبر ومراعاة ، ويتساقط على شعرك واجفانك وأنفك ، ويدخل في فمك اذا شئت ان تكلم رفيقا لك : فتحسّه يذوب على لسانك كقطعة سكر لذيذة .. واذا استطاع المرء ان يتخلص من الحاح هذا الضيف لمدة ساعات ، فهو واثق من انه سيزوره مرة اخرى في الليل ، وانه سيعسكر ثانية صباح اليوم التالي بجيوشه على الابواب والنوافذ والاشجار ، ويصرّ على الا يجلو عن هذه المناطق المحتلة الا حين يجلو الشتاء .. وهو لا بد باق، مع ذلك ، فترة من الربيع حتى لا يسمح للناس ان ينسوه بسهولة .

وانا جالس الآن ، اكتب هذه الكلمات ، أتمتع عبر نافذة غرفتي في فندق البلقان بتساقط الثلج الذي كانت الجرافات قد اجلته طوال يوم امس عن الطرق ، فعاد يريق عليها طوال الليل اطنانا من النصاعه والبياض .. وانظر الى الساحة القائمة تجاه الفندق ، فأرى الصبية والاولاد يتراشقون بالثلج او يتزحلقون عليه باقدامهم او يركبونه على عربات صغيرة ، وهم يتصايحون ويعدّ بعضهم لبعض مكائد واحابيل تكون فرصة جديدة للضحك والصراخ .

اتطلع الى الاولاد واذكر ان الثلج لم يوفرني مساء الامس من طيشه . . فهو اذا ما اتى الليل واشتد البرد تجمّع في الطرقات زجاجا خطرا لا ينكسر قبل ان يكسر من يطأه بغير مراعاة . وبالرغم من ان رفيق السفر خليل نعوس امين سر لجنة الصداقة اللبنانية البلغارية يعرف مخاطر الثلج المتجمد ، فقد نسي ذات لحظة ان يظلّ متشبثا بذراعي ليقيني من السقوط اذا حدث التزحلق .. ولم يحسّ بتراخي ذراعه عن ذراعي الا حين انزلقت الارض تحت قدمي .. وبدلا من ان يشدّني شددته ، وبدلا من ان يقيني السقوط سقط فوقي ، فكان الالم مزدوجا : بفعل الارض التي تلقت ظهري ، وفعل الجسم الذي تلقاه صدري واقسم انه لا يقل عن مئة كيلو غرام ، وان كان خليل يزعم انه لا يزيد عن سته وتسعين !

نهضت وانا اشعر بآثار عدوان الطبيعة والبشر على جسمي الضعيف ، ووقف خليل ينظر اليّ في الظلام ، فأرى على وجهه امارات الاسى والاسف ويرى على وجهي علامات الالم والوجع .. ولم ينته هذا المشهد الا حين انفجرت ضاحكا ، فسرّي عن خليل وانفجر بدوره ضاحكا ، ومضينا نتابع الطريق ، وابتهلت الى خليل ان يترك ذراعي ، باعتبار ان سقوطي وحدي اقل خطرا من سقوطي معه .. ولكنه تجاهل ابتهالاتي واخذ يشدّ ذراعي باحكام كانه يكبلني بقيد من حديد !

على أن من الظلم للثلج ان اتغاضى عن حسنة من حسناته اصابتني بالخير . فان هطوله الذي لم ينقطع والذي افسد برنامجا لزيارة مدن بلغارية عديدة ، بسبب قطعه للطرق ، الزمني غرفتي ساعات طويلة لم اجد افضل من ان اقضيها في كتابة قصة جديدة كانت ظروف العمل في بيروت تحرمني من الانصراف لكتابتها . ومما اذكره للثلج كذلك انه اغرق ذات صباح سيارة نستقلها لزيارة جبل رائع في ضاحية صوفيا . وكنت في السيارة اعالج في ذهني مشكلة فنية استعصت عليّ في القصة وكدت لا اجد لها حلا .. وترجلنا من السيارة المنحرفة في ساقية يكسوها الثلج ، وبدأ السائق يضع الخطط لاخراج السيارة من الورطة . كان هو يعمل في ذلك ، وكان ذهني يعمل في القصة ، او في المشكلة العارضة . وأصبت بالذهول حين لاحظت ان المشكلة انحلت عندي ساعة انحلت مشكلة السيارة بخروجها سليمة من الساقية !

اسرعت الى انجلو ، سائق السيارة ، فعانقته وقبلته

... وشعر بالخجل من ذلك فقال :

ـ العفو يا سيدي . ان هذا امر عادي . . وكثيرا ما نحلّ هذه المشاكل بسهولة ، وفي لحظات :

فلت لـه :

ـ ولكن الامر عندي ليس بهذه السهولة يا انجلو !

ورويت له الحكايه ، فزاد احمراره وقال :

ـ يسعدني جدا أن أكون قـد ساعدتك في حل هذه المشكلـة !

ثم صمت قليلا وقال :

ـ حين تعرض لك مشكلة جديـدة فـي القصـه . فاخبرني يا سيدي،حتى اسقط السيارة في ساقية اخرى!

ضحكت مرافقتنا اللطيفة زفيتازفيتوفا ، وهـي مستشارة في لجنة الصداقة البلغاريه ، وقالت :

ـ نستطيع أن نعيرك انجلو بصفة « مستشار فنـي لمشكلات التكنيك الفصصي » !

وانتهز فرصة الحديث عن مشكلة السيارة هـذه لانتقل الى الحديث عن « العلاقة البشرية » لدى البلغاريين. فقد تجمع حول السيارة حين انحرفت الى الساقيه كثير من سكان تلك الناحية والمتزلجين والجنود المارّين هناك ، وأخذوا جميعـا يفكرون في ايجاد المخرج ، كأنما المشكلـة مشكلة كل منهم ، وحلّها يتوقف جميعا علـى تعاونهم .. وكان ثمـة صعوبة بالطبع لاخراج السيارة الثقيلة بواسطة الدفع أو حتى الحمل. ومرت بعد لحظات سيـدة كانت تتزلج ، فطلبت من الحضور ان ينتظروا . وان هـي الا دقيقتان حتى عادت مع زوجهـا بسيارتهما التـي وقفت بشكل معاكس لسيارتنا ، ثم ربطت السيارتان بسلـك حديدي متين ، وأتفق الجميع على لحظة واحدة يدور فيها محركا السيارتين ورفع السيارة المأزومة ودفعها ! وكـان اكثر ما مسّ قلبي ، وانا اشارك في هذا العمل بدافع مـن خجل الا امد يدي بالمعونة ، ولو على سبيل الرمز ، انـي وجدت على مقربة من يدي يدا صغيرة ، نظرت فرأيت ان صاحبتها طفلة لا تتجاوز السادسة تحاول هي ايضا دفع السيارة الثقيلة ووجهها يطفح بهجة وسرورا !

ان روح التواصل والتعاون ـ هذه التي تكاد تنطفىء حتى في أوطاننا الشرقية ـ تتجلى في كثير من مظاهـر الحياة البلغارية ، حيث اتيح لي ، على الرغم من قصر المدة، ان اقف على نزعة للود والصداقة والتكاتف تبلـغ حـدّ الفروسية تشدّ بيـن موظفي اللجان ، وخدم المطاعم على حد سواء . ولعل هذا التعاضد هو السرّ في نهضة بلغاريا الحديثة التي تحولت في سنوات قليلة من بلد فقير الى بلد مزدهـر قوي الصناعة منتعش الزراعة والاقتصاد .

ولا شك في ان مصدر ذلك تلـك الصيغة المثالية التي توصلت اليها بلغاريا منذ نصف قرن تقريبا عندما تضافرت جميـع قواها العمالية والفلاحية وقطاعاتها المختلفة على تكوين « الجبهة الوطنية » لدحر الفاشية والامبرياليـه واقامه الوحدة الديموقراطيـة .

وقد حدثني في ذلك مطولا السيد لاليـو غانتشيف السكرتير العام للمجلس الوطني للجبهه الشعبيه ،ووجدت ان بامكاننا في الوطن العربي كله ان نفيد اكبر الفائده مـن هذه الصيغه وان تتجمع القوى الوطنيه والتقدمية ، ولا سيما فـي لبنان ، في جبهه صامدة واحدة ، يسعها ان تواجه بالتعاون والتعاضد كل اخطار الرجعية والتخلف .

وهناك نقطة اخرى اثلجت مني الصدر لدى الدين لقيتهم في صوفيا على مستوى القيادة السياسية والثقافية. هي ان دعمهم لنضال الشعوب العربية يرتكز على ايمـان صادق وعميق بعدالة هذا النضال وعلى ادانه كامله للعدوان الامبريالي والصهيوني على الامة العربيـة والشعـب الفلسطيني . وقد كنت سعيدا بالتعرف علـى السيـد جورجي بوكوف رئيس تحرير جريدة « قضية العمال » التي هي اكبر جريدة يومية (٧٦٠ الف نسخة) واستمعت الـى آرائه عن المشكلـة الفلسطينية واتفقت معه على اصدار الطبعـه العربية من كتابه « الصهيونية بلا أقنعه » الذي سيصدر بالبلغارية في الصيف القادم ، ونأمل ان تصدر طبعته العربيه في الوقت نفسه .

وعلى صعيد التعاون البلغاري العربـي ، حضرت جلسات مناقشة وتوقيع البروتوكول الخاص بين لجنـة الصداقة البلغارية والعلاقات الثقافية مع الخارج وبيـن ممثـل لجنـه الصداقـه اللبنانية البلغاريـه ، وهـو ينظم تدعيم كل مظاهر التعاون بيـن البلدين بما يضمـن توثيق العلاقات بين الشعبين . وسرني ان يكون نائب رئيس لجنة العلاقات هو الشاعـر نينونيكولوف الذي تتحـدث الاوساط الادبية عن ديوان شعري هام له ارجـو ان اطلـع القراء العرب على نماذج منه في المستقبل .

والحق اننا تحدثنا مع الشاعر نينوكوف وفاسيـل ميشيف رئيس قسم العلاقات مع البلاد العربية ومستشار اللجنة للشؤون العربية السيد سكارلاتوف عن وسائل تدعيم التعاون الثقافي بيـن بلدينا ، كمـا تحدثنا مع ممثلي اتحاد الكتاب البلغاريين عن عقد علاقات وثيقـة مع اتحاد الكتاب اللبنانيين ، وترجمة آثار لكتابنا الى اللغـة البلغاريـة وترجمة آثار بلغارية الى اللغـة العربية .

هذه لمحة سريعـة عن زيارة قصيرة ساحرة قمت بها الى بلغاريا ، البلد الصديق الذي يفتح صدره وقلبه للعرب عامة وللبنانيين خاصة ويمدّ يدا كريمة للتعاون ينبغي ان نصافحها بكل حرارة واخلاص .

سهيل ادريس